مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٧) العدد (١)
الإصدار الحادي العشرون
٢٠٢٤ (٣٣٧-٣٢٥)

لغة البيان: فرادة نظامها وخصوصية وظائفها

د. سومية حكيم

دكتوراه أكاديمية في أصول التفسير، دكتوراه مهنية في علم النفس الإلكنيكي أخصائية صحة النفسية، مدربة دولية معتمدة في التنمية وتطوير المهارات الحياتية، باحثة في العلوم الشرعية والتربوية، أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي بالمغرب، أستاذة مؤطره بمؤسسة النخيل بالتعليم غير النظامي بهولندا والدول المجاورة.

د. دنيا تامري

دكتوراه تخصص الفقه والأصول، دكتوراه مهنية في علم النفس الإكلينيكي، محاسبة زكاة معتمدة، عضو منظمة الزكاة العالمية، أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي، أخصائية صحة نفسية بالمغرب

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١١ مارس ٢٠٢٤م

الملخص

لقد أنعم الله عز وجل على الإنسان بنعم لا نعد ولا تحصى، ومن أجل هذه النعم وأعظمها هذا الكتاب العزيز، يعلمه ويرشده، واصطفى له سيد البشر لأداء الرسالة المنوطة به، وقد احتفل المسلمون بهذا الوحي الكريم أيما احتفال، ورأوا من واجبهم اللازم خدمته، والتسابق إلى بيان كنوزه ودلالاته، وكان من فريق العمل الذي نشط لدرسه وتدبره ثلة من الأولين، عنوا بلغته، فلم يألوا جهدا في رعايتها وصيانتها، وما دفعهم إلى ذلك إلا رغبتهم في خدمة التنزيل العزيز، والتشرف بأن يكونوا إلى جانب مأدبة الله.

وبحثنا هذا غيض من فيض، يلقي الأضواء على طرف يسير من هذه الخدمة، ولولا الإيجاز الذي اضطررنا إليه لاحتمل زيادة الكثير من الصفحات.

وتعتبر هذه الورقات التي خصصتها لدراسة لغة البيان وما تميزت به من فرادة في نظامها الصرفي وما تألقت به في رسالتها البيانية، مساهمة بسيطة في خدمة هذا الكتاب العزيز، حيث دار موضوعها حول بيان روعة واستثنائية تلك اللغة التي

اختارها الله عز وجل من بين لغات العالم لتكون وعاء كلامه ومهد رسالاته، لما اتصفت به من صفات، جعلها تكون الأجدر والأصلح لهذا الخطاب الرباني الخالد، فهي ترجمان القرآن، لأنها لغة حية خالدة متوافقة من معاني القرآن ومقاصده، تحمل في طياتها تجليات الإعجاز القرآني وعمقه الفكري، ومن خلال دراسة هذه اللغة وفهمها، نستطيع أن نتعرف على معاني القرآن وتحقيق الغاية من إنزاله.

ومن كل ما سبق رامت هذه الورقات استقراء الآيات الدالة على عربية القرآن الكريم ونظر المفسرين فيها، وتتبع الآيات الدالة على المراد حسب ترتيب النزول، مع الوقوف على ما تفردت به هذه اللغة من مقومات الحياة والخلود، ما جعلها الأجدر بحمل هذه الرسالة الربانية.

وغاية هذه الدراسة نفي دعوى تاريخية الخطاب الشرعي، وأنه نزل للعرب خاصة، ونفي شبههم ومغالطاتهم والرد عليها بالحجة والبرهان، وبيان الأعطاب المنهجية والمعرفية في قراءات المعاصرين التأويلية المغرضة، والتي اتخذت من المنهج الانتقائي مسلكا نسف بالنص الرسالي الخالد، وأفقد مغزاه الدلالي الوظيفي.

وقد عالجت هذا الموضوع حسب إشكاله العلمي والمنهجي عبر محورين اثنين:-

المحور الأول: تناولت فيه: عربية القران من داخل الدرس التفسيري والرد شبه أنه كتاب للعرب فقط، ثم تناولت في المحور الثاني وظائف لغة البيان وأهم خصائصها، وما تفردت به في نظامها الصوتي، ومدى عراقتها واختلافها عن الشعر، ثم ذيلت البحث بخاتمة، ضمنتها خلاصات هذه الورقات ونتائجها. أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به، والحمد لله رب العالمين.

الكلمات المفتاحية: لغة البيان، النظام، الوظائف، الخصوصية.

* **تقديم**

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الرحمات والبركات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، وبتيسيره تزول العقبات، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، البشير النذير، والسراج لمنير، إمامنا وحبيبنا ومعلمنا الخير، وهادينا الى الله، محمد بن عبد الله، وعلى أله وصحه وعلى من سار على دربه الى يوم الدين.

أما بعد: لقد حازت العربية شرفا عظيما؛ إذ نزل القرآن الكريم بلسانها المبين، وقد اصطفاها الله سبحانه لوحيه من بين لغات البشر، وفي إنزال القرآن الكريم باللغة العربية مرتبة رفيعة لعلم العربية، ووجه الدلالة أنه تعالى أخبر أنه أنزله عربيا في سياق التمدح، والثناء على الكتاب بأنه مبين لم يتضمن لبسا، عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك يدل دلالة ظاهرة على شرف اللغة التي أُنزل بها.

وقد عنِي السلف بالعربية، وأقبلوا على خدمتها على نحو شامل، وأيقنوا أن دراستها والتأليف فيها ضرب من ضروب العبادة، يتقربون به إلى الله".[1] فاللغة نعمة الله العظمى، وميزة الإنسان الكبرى، ولها قيمتها في جميع مجالات الحياة البشرية، وهي الخاصية التي تميز بها الإنسان عن سائر الحيوان، ولو أن البعض قد عدها وسيلة، فإنها في الحقيقة غاية تدرس

[1] - عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم المؤلف: أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال 1/ 3.

لذاتها، ربطت بين الفكر والعمل، ومن عناصرها التفكير والصوت والتعبير عن الفكر الداخلي والعمل الخارجي.

وبفضل هذه النعمة قد أصبح الإنسان كائنا مثاليا على وجه الأرض، فاللغة بمفهومها الحقيقي من خصائص الإنسان، إن لغة البشر مقدرة على الإبداع والابتكار، والمقاطع التي تنطقها هي تأثيرات صوتية تستقبلها الأذن لكنها مرتبطة بأعضاء النطق فلا تستطيع أن تعرف حركات الأعضاء النطقية إذا صرفنا النظر عن التأثير الصوتي.

والصوت – إذن – أداة للفكر: وإن للغة في كل لحظة، نظاما ثابتا وحركة متطورة، ولها في مجموعها، أشكالا كثيرة متضاربة لأنها في مجالاتها المتحدة: مادية وعضوية ونفسانية، وكما أن اللغة – بصفتها المذكورة – من خصائص الإنسان، فإنها غاية منشودة في حياته الفردية والاجتماعية.

ولقد سجل البروفيسور السوداني –عبد المجيد الطيب –أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، إنجازًا علميًا جديدًا في مسيرته العلمية والبحثية، وذلك بعد نيله درجة الدكتوراه في اللغة العربية مؤخرًا، من جامعة أم درمان الإسلامية، والتي أبانت عن واقع ومستقبل اللغة العربية المشرق الذي قد يمكنها من أن تكون اللغة العالمية الأولى في المستقبل. وقد وصفها في كلمة جامعة بالقول: "لن يجد العالم غير العربية لغة قياسية ومنطقية وحيّة".[2]

المحور الأول: عربية القرآن والرد شبه أنه كتاب للعرب فقط

*** القرآن عربي التنزيل**

أولاً– الآيات الدالة على عربية القرآن الكريم

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذا القرآن مؤلفا منظوما على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ولم يكن التأليف من فعله؛ والذي يدل على صحة مقالتنا قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾(القيامة: 16). لأن التأليف: "لو كان من فعله –عليه السلام –لكان لا يوجد منه تحريك اللسان وقتما نزل عليه؛ لأنه إذا كان كالخيال فهو يحتاج إلى أن يصوره في قلبه، ثم يصل إلى التأليف بعد التصوير، وتتأتى له العبارة باللسان، وإنما يقع التحريك من مؤلف منظوم؛ ثبت أنه أُنزل هذا المؤلف منظوم".[3] ولهذا قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(يوسف: 2). ويؤكد ذلك بقوله سبحانه:﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾(الزمر: 28). "يعني: ذي لبس"، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء 195).حيث نزل به الروح الأمين ليترل على أطهر مكان وأحكمه على قلب النبي صلى الله عليه وسلم. وليس للشياطين عليه من سبيل فلا يستطيعون سرقة شيء منه. وهو في وضوح تام؛ لأنه بلسان عربي مبين".[4]

قال الشافعي رحمه الله: "والقرآن يدل على أن ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، قال الله –عز وجل:

---

[2] - المدينة: صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، الأربعاء 2011/05/25 بقلم نايف كريري جازان.

[3] - التفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي 346/10

[4] - تاريخ نزول القرآن، المؤلف: محمد رأفت سعيد، 351

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء: 195). فأقام حجته: بأن كتابه عربي".[5] ثم أكد ذلك بأن نفى عنه كل لسان غير لسان العرب، في آيتين من كتابه: "قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (سورة: طه 113). وقال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾(سورة: الأحقاف 12). ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة: الزمر27). ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة فصلت 3). ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة: الزخرف 3). ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة: الشورى7). ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء195). ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة: النحل 103). ﴿ ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة: فصلت 44). ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة: الرعد 37)،[6]

فهذه آيات محكمات هن أم الكتاب في هذا الباب، "تجاوزن جمع القلة إلى جمع الكثرة، تعدون إشارات الإيجاز وحدود المساواة إلى باحة الإطناب، ينطقن بنصوص صريحة لا تحتمل التأويل، ولا تقبل التبديل ولا التحويل، بأن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي جعله آخر كتبه، على خاتم أنبيائه ورسله قرآنا عربيا، وأنه هو الذي جعله قرآنا عربيا، وأنه هو الذي **أو**حاه قرآنا عربيا، وأنه هو الذي فصل آياته قرآنا عربيا"،[7]

"وأن الروح الأمين نزل به على قلب خاتم النبيين بلسان عربي مبين، وأنه ضرب فيه للناس من كل مثل، والمراد بالناس أمة الدعوة من جميع الملل والنحل، حال كونه قرآنا عربيا غير ذي عوج، وأنه أمر خاتم رسله أن ينذر به ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ (سورة الشورى :7). ومن حولها من جميع الورى، وأنه علل إنزاله إياه قرآنا عربيا للإنذار والذكرى، والوعيد والبشرى، لعلهم يعقلون ولعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا، أنزله حكما عربيا، وأمر من أنزله عليه أن يحكم بين جميع الناس بما أراه الله فيه من الحق والعدل، الذي جعله فيه حقا مشاعا لا هوادة فيه ولا محاباة لقرابة ولا فضل، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء:105). هذه الآيات المحكمة هداية دينية عربية". [8]

ثانياً– أسباب نزول القران بلغة العربية

عربيا صفة قرآنا. وهذا وصف يفيد المدح، لأن اللغة العربية أبلغ اللغات وأحسنها فصاحة وانسجاما. وفيه تعريض بالامتنان على العرب، وتحميق للمشركين منهم حيث أعرضوا

[5] - تفسير الإمام الشافعي، 3-1163

6 - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني الحسيني 9 /268

7 - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني الحسيني 9 /268

8 - المرجع السابق 9 /267

عنه وكذبوا به، كما قال الطاهر ابن عاشور ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنبياء: 10). [9]

ويمكن الإشارة الى أهم أسباب نزول القرآن باللسان العربي:-

أولا: كونه قرآنا عربيا تيسيرا للفهم

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الزمر: 28).وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده، وحثهم فيها، على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا معرفة من القيل والبيان إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به.

فأما قبل ذلك، فمستحيل أمره بتدبره، وهو بمعناه جاهل، كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه".[10]

"فالله جل ثناؤه، قد أمر عباده بتدبره، وحثهم على الاعتبار بأمثاله، كان معلوما أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدل عليه آية جاهلا". [11] "وإذا لم يجز أن يأمرهم بذلك، إلا وهم بما يدلهم عليه عالمون، صح أنهم بتأويل ما لم يحجب عنهم علمه من آية، الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدمنا صفته آنفا عارفون، وإذا صح ذلك، فسد قول من أنكر تفسير المفسرين من كتاب الله وتنزيله، ما لم يحجب عن خلقه تأويله".[12]

ولقد تكلم المفسرون وعلماء القرآن كثيرا في موضوع إعجاز القرآن وتحدي الناس بالإتيان بمثله أو بشيء من مثله وعجزهم عن ذلك ومنهم من قال إن العرب وهم فرسان البلاغة والفصاحة قادرون على سبك بعض السور والجمل المماثلة ولكن الله تعالى صرفهم عنه فظهر منهم العجز، ولا نرى هذا وجيها ولا نفهم حكمة الله بتحديه للناس وصرفهم عنه مع قدرتهم عليه، ومنهم من قال إن لغة القرآن أعلى من أفهام العرب وأساليبهم ولذلك عجزوا عن الإتيان بمثله، وهذا يتناقض فيما يبدو لنا مع نصوص قرآنية صريحة بأن لغة القرآن وأساليبه مثل لغة العرب وأساليبهم وفي متناول أفهامهم ليعقلوه ويتدبروه كما جاء في آية سورة ص هذه ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وآيات سورة الزمر هذه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وآية سورة فصلت

[9] - التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي 314/16

[10] - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري 77/1

[11] - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري 78/1

[12] - المرجع السابق 196/20

هذه ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[13]وآية سورة الزخرف هذه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ولقد حكى القرآن كثيرا من أقوال العرب فجاءت منسجمة مع نظمه ولغته. وقد مر من ذلك أمثلة عديدة. ومنها آيات سورة الأنفال هذه ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ومنها آيات سورة الأحزاب هذه ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ وآية سورة سبأ هذه ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ومنهم من جمع بين التنويه ببلاغة أسلوب القرآن وروعة نظمه وسمو طبقته وبين ما احتواه من المبادئ والأسس والتلقينات التي فيها هدى ورحمة للعالمين في كل ظرف ومكان، والتي لا تناقض بينها ولا تخالف وبين تأثيره في السامعين وروحانيته القوية النافذة «1» . وفي هذا الحق والصواب. وبذلك كله كان معجزة الله الكبرى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بل واكتفى بها عن إظهار معجزات خارقة استجابة لتحدي الكفار على ما جاء في آيات عديدة مر بعضها ومنها آيات سورة العنكبوت هذه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة العنكبوت: 50).

"والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابا، أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه، لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعال، ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم: 4]، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة النحل: 64). فغير جائز أن يكون به مهتديا، من كان بما يهدى إليه جاهلا". [14]

ثانيا: عربيا بلسان القوم

فقد تبين إذا -بما عليه دللنا من الدلالة -أن كل رسول لله جل ثناؤه أرسله إلى قوم، فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه، وكل كتاب أنزله على نبي، ورسالة أرسلها إلى أمة، فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه.

"فاتضح بما قلنا ووصفنا، أن كتاب الله الذي أنزله إلى نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، بلسان محمد -صلى الله عليه وسلم-، وإذ كان لسان محمد -صلى الله عليه وسلم -عربيا، فبين أن القرآن عربي. وبذلك أيضا نطق محكم تنزيل ربنا، فقال جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف: 2). وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

[13] - التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول] المؤلف: دروزة محمد عزت الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة الطبعة: ١٣٨٣ هـ، تاريخ النشر بالشاملة: ٨ ذو الحجة ١٤٣١-430/3

[14] - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري 11/1

الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[سورة الشعراء: (192-195). [15]

*** اللغة العربية لغة الإسلام وليست للعرب**

أولاً– اللسان القران لسان الأمة جمعاء

لقد بلغ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه دعوة ربه كما أمر، فبدأ بأم القرى ثم بما حولها من جزيرة العرب وشعوب العجم، باللسان العربي الذي قضى الله أن يوحد به ألسنة جميع الأمم، فيجعلهم أمة واحدة بالعقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة; ليكونوا بنعمته إخوانا لا مثار بينهم للعداوات التي تفرق بين الناس بعصبيات الأنساب، والأقوام، والأوطان، والألسنة.

فكتب –صلى الله عليه وسلم–كتبه إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الإسلام العربية ككتبه إلى ملوك العرب وأمرائهم، وبلغ أصحابه ما أمر الله به أمته من تعميم الدعوة، وبشرهم بأن نورها سينتشر ما بين المشرق والمغرب، فصدع الصحابة والتابعون لهديهم، وجميع دول الإسلام من بعدهم، بما أمروا به من نشر هذا الدين بلغته، في كلا قسمي شريعته عبادته وحكومته. [16]

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(سورة الأنبياء: 107).وقوله تبارك اسمه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(سورة الفرقان:1).وقوله تعالى جده: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(سورة سبا: 28).وقوله جل جلاله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(سورة الأحزاب: 40).وقوله عم نواله فيما أنزله عليه في حجة الوداع يوم الحج الأكبر:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة:3). [17]

ثانياً– تفنيد مزاعم أن الدين للعرب

منذ عقود من الزمن وخصوم الإسلام وأعدائه يجهدون في إثارة الشبهات ضد عالمية الدعوة الإسلامية والتشكيك في شمولها لجميع أفراد البشر، في محاولة لتصوير الدين الإسلامي ديناً خاصاً بالعرب، بل بالذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية حين نزول القرآن، كل ذلك لأجل حصر الدين الإسلامي في حدود إقليمية أو قومية، أو غيرها من الحدود الضيقةـــ منعاً من انتشاره والحيلولة بينه وبين شعوب العالم ومنع هذه الشعوب من أن تتعرف على أفكار هذا الدين ورؤاه النيرة.

ومن هذا المنطلق فهم يطرحون الشبهات الواحدة تلو الأخرى، فتارة نجدهم يقولون: لماذا انزل الله عز وجل القرآن الكريم باللغة العربية؟ أليس هذا دليلا على أن الإسلام دين يخص العرب فحسب؟! وتارة نجدهم يشككون في عالمية الدعوة الإسلامية بقولهم: إذا كان الدين الإسلامي دينا عالميا

[15] - المرجع السابق12/1

[16] - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني ،9/ 271

[17] - المرجع السابق 9 /269

شرعه الله جل جلاله للبشرية جمعاء كما تقولون، فلماذا نجد الصبغة العامة لآيات القرآن الكريم هو الاهتمام بالإنسان العربي وبكل ما هو موضع اهتمامه، وخاصة بالإنسان العربي الذي كان يعيش في الجزيرة العربية عند بدء الدعوة الإسلامية وانتشارها؟!

ليس هذا دليلاً واضحاً على أن الإسلام والقرآن خاص بعرب الجزيرة العربية، حيث إنهم المقصودون في القرآن دون غيرهم من الأمم والشعوب، خاصة المتحضرة منها في عصرنا الحاضر؟!

فعالمية الإسلام تعني أن الإسلام لم يكن يوما للعرب، و لم يكن القرآن يوما لقريش، فهو منذ اليوم الأول؛ سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين، أو يخاطب قريشاً، أو يخاطب العرب أجمعين، أو يخاطب الناس كافة، إنما يخاطبهم بمبدأ واحد وهو عبادة الله، لان هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي، وليس رسالة خاصة بالعرب، إن موضوعه هو الإنسان، أي إنسان، ومجاله هو الأرض، كل الأرض.

فالله سبحانه وتعالى أنزل القرآن باللغة العربية، فوحد به شتات لهجات العرب، فأعطى بذلك للغة روحها وعذوبتها، حتى أصبح القرآن روح اللغة التي كتب لها الخلود نفسه بحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر:9). فتداخلت قدسية اللغة بقدسية القران والدين فأضحى المقدس الديني والقرآني شيء واحد، والحمد لله رب العالمين.

وجملة ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(سورة القلم: 52).التي اختتمت بها السورة عظيمة المدى في إطلاقها حيث ينطوي فيها إعلان كون الرسالة المحمدية دعوة شاملة لجميع الأجناس والألوان والأديان والبلدان في جميع الأزمان. وتبكير ورودها يعني أن ذلك كان هدفا محكما من أهداف هذه الرسالة منذ بدئها، خلافا لما يحلو لبعض المستشرقين أن يزعموه من أن هذه الرسالة للعرب فقط، أو بأن عمومها قد كان تطورا متأخرا. ولقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة مكية ومدنية متنوعة الأساليب، قوية المدى. منها آيات سورة ص هذه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(سورة يوسف104).﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (سورة ص: 88).

المحور الثاني: وظائف لغة البيان واهم خصائصها

*** وظائف لغة البيان**

أولاً– اللغة العربية ترجمان القرآن

فإذا كانت اللغة وعاء الفكر، فإن الله تعالى اختار لخطابه لغة رفيعة خادمة لمغزاه السامي وبعده النوراني، وهي اللسان العربي باعتباره الأجدر في حمل المعاني ذات الحمولة المعرفية الربانية ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (سورة المزمل:5). انه تناغم بديع بين فخامة الوعاء وجلالة قدر المحتوى الخالد كما عبر عن ذلك رشيد رضى في تفسيره.

قال: هذا القرآن أمر عظيم، بل هو أعظم شأن بين الله تعالى وبين عباده ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(سورة الحجر: 21). وكان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه الوحي وهو يتفصد عرقا، وكان يكاد يهيم بشدة وقعه وعظم تأثيره حتى يكاد يلقي بنفسه من شاهق الجبل، وأي قلب يحتمل، وأي صدر يتسع، لكلام الله العظيم، ينزل به عليه الروح الأمين، إذا لم يتولى سبحانه بفضله شرحه وإعانته على حمله،

وهو ما امتن به على رسوله بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾(سورة الشرح: الآية: 3). فهذا وجه مظنة وقوع الحرج بمعناه اللغوي الأصلي بالنسبة إلى الرسول نفسه، وكونه تعالى صرفه عنه بشرحه لصدره، ويصح فيه أن يكون النهي تكوينيا".[18]

ثانياً– اللغة العربية لغة البلاغ

اللغة العربية لغة البلاغ والإبلاغ، ولغة الدعوة، "فإنه صلى الله عليه وسلم كلف به هداية الثقلين وإصلاح أهل الخافقين، ومن المتوقع المعلوم بالبداهة أن المتصدي لذلك لا بد أن يلقى أشد الإيذاء والمقاومة، والطعن في كتاب الله، والإعراض عن آيات الله، وهي أسباب لضيق الصدر كما قال تعالى في آخر سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (سورة الحجر: 97).وفي آخر سورة النحل بعدها:﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (سورة النحل:127).ومثله في سورة النمل. وقال تعالى في أوائل سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (سورة هود: 12). والمراد من النهي عن أمر طبعي كهذا الاجتهاد في مقاومته والتسلي عنه بوعد الله والتأسي بمن سبق من رسله عليهم السلام".[19]

فاللغة العربية هي لغة إنسانية صرفه لا تنتمي لعنصر، ولا تتحيز لفئة أو جنس، ولا أدل على ذلك من أن معظم الذين نبغوا فيها وألفوا بها أكرم المعارف، وأجل العلوم، وأنفعها للإنسانية، أنهم لم يكونوا عربا.[20]

واللغة العربية يمكن أن تكشف عن المزيد من أسرارها المدهشة، وإمكاناتها الهائلة، الأمر الذي يرشحها لأن تكون اللغة العالمية الأولى في المستقبل. تلك اللغة القياسية التي يبحث عنها العلماء اليوم لتكون لغة مشتركة للإنسانية جمعاء لما لها من سمات فريدة تمكنها من القيام بهذا الدور.[21] قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(سورة الزمر:27). والتعريف في الناس للاستغراق، أي لجميع الناس، فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة.[22]

*** خصوصية بنية لغة القرآن**

لكل لغة سماتها ومميزاتها الخاصة بها، ويستوي في ذلك أن تكون هذه الخواص صوتية أو صرفية أو نحوية أو أسلوبية أو على مستوى الألفاظ ودلالتها، ومن البديهي أن تكون هذه السمات هي جملة الفروق بين لغة وأخرى وأن

---

[18] - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني 269/8

[19] - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني 270

[20] - المدينة: صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، الأربعاء 2011/05/25 بقلم نايف كريري جازان.

[21] - المرجع السابق

[22] - التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي) 397/23

تكون الأساس الذي ينبني عليه تحديد اللغات والحكم على هوية كل واحدة منها، وإعطاؤها اسما خاصا بها تنفرد به ويتعرف إليها في كل الحالات.

وليست العربية بدعا في ذلك، فلها ملامحها وظواهرها التي مازتها من غيرها من اللغات، وجعلتها لغة ذات ضوابط وحدود معينة أهلتها للتسمية المعروفة بها منذ أزمان بعيدة، وهي اللغة العربية. وسمات عربيتنا هذه كثيرة كثرة فائقة، هي –في الحق–جملة القواعد والقوانين الضابطة لها ولاستعمالاتها. ولسنا بقادرين –في هذا المقام ونحوه–على أن نأتي بهذه القواعد والقوانين كلها أو جلها، ومن ثم سوف نكتفي هنا بإيراد أمثلة قليلة لشيء من هذه السمات والخواص التي تنفرد أو تكاد تنفرد بها العربية، إما لأنها خاصة بها ومقصورة عليها، وإما لأنه تشيع أو توظف فيها توظيفا يجري على وفق نظم ثابتة مطردة، تجعل هذا الشيوع وذاك التوظيف ملمحا مميزا للغة العربية وقد فصل في ذلك المؤلف: كمال بشر في كتابه دراسات في علم اللغة أيما تفصيل".[23] وحسبنا في هذا المقام أن نشير الى بعض تلك السمات والخصائص كالاتي:–

أولاً– عراقة اللغة العربية واختلافها عن الشعر

يرجع تاريخ آثار اللغة العربية المعروفة مثل الشعر القديم وحكم العرب إلى قرون ما قبل الميلاد، ورغم تلك العراقة، فقد ظلت اللغة العربية كما هي لم تتغير و لم تتبدل، أما اللغات الأخرى فتتبدل وتتغير، بل وتموت في ظرف قرنين أو ثلاث، أما إن كانت اللغة بنت أربعة قرون؛ فإنها تصبح من مخلفات التاريخ ومقتنيات المتاحف[24].

وتختلف لغة القرآن عن الشعر، ولقد نبهت الآيات الكريمات إلى تنزه القرآن الكريم عن المشابهة لكلام البشر فيما عرفه الناس من كلام الكهان وشعر الشعراء، وصلة الشياطين بهذين النوعين من الناس، ورسول الله صلّى الله عليه وسلم ليس بكاهن وليس بشاعر، وما أنزل إليه ليس من قبيل سجع الكهان وشعر الشعراء،[25] و لما كان الشعر يمثل جانبا كبيرا وخطيرا من أساليب العرب في القول، وجدنا هذا التفصيل المذكور في الآيات الكريمة بعد نفي المشابهة بين القرآن الكريم والشعر من جهة، وبين الرسول –صلّى الله عليه وسلم–، والشعراء والكهان من جهة أخرى. [26]

ولو فهم الناس أن هذه الدعوة خاصة بعشيرة النبي عليه السلام فحسب، لاستجاب له الأقربون بدافع العصبية، ولكنّ الأقربين أنفسهم أدركوا أن الدعوة لهم ولغيرهم، أي: ليست من قبيل الدعوات العنصرية وإنما تنظر إلى الناس جميعا نظرة المساواة وتعمّ بخيرها العالمين". [27]

ولذلك رأينا من الأقربين المستجيب والمعرض، قال تعالى ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي

---

23 - دراسات في علم اللغة المؤلف: كمال بشر الناشر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: -عدد الصفحات: ٣٣٥

24 - المدينة: صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، الأربعاء 2011/05/25 بقلم نايف كريري جازان.

25 - تاريخ نزول القرآن، المؤلف: محمد رأفت سعيد، 353

26 - المرجع السابق.

27 - المرجع السابق 354

يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة الشعراء:215).

وهذا يرجع إلى مكانة الشعر في حياة الناس عند نزول الوحي، وكيف عني العرب بفنّ القول، وأجادوا فيه وأنزل الله كلامه الذي أعجزهم بيانه فلم يستطيعوا الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، ولو تظاهر في ذلك الإنس والجن. فأسلوب المخلوق يستحيل أن يرقى إلى كلام الخالق سبحانه". [28]

ثانياً– اللغة العربية لغة حية

إن العالم إذا أراد لغة قياسية منطقية حيّة، لن يجد لغة غير العربية للقيام بهذه الوظيفة، فهي بما لها من سمات قياسية، وقدرة على الإبانة، ودقة في التعبير، تمثّل الأمل الأوحد الذي يلوح في الأفق لسد حاجة العالم في هذا المجال، فهي وعاء الفكر، تحمله وتوصله ولا تُنشئُه، لذا كانت اللغة الرفيعة خادمة للغرض، ومتناسبة مع المعاني التي تحملها.

فاللغة العربية أصلح اللغات، وأجمع المعاني والعبارات، وأحسن إشارة وأوجز عبارة، تشنّف الأسماع وتوضّح المعاني بإبداع، وهذه اللغة يكفيها شرفًا وفضلاً ارتباطها بالقرآن تتلى، واتصالها بسنة المصطفى، فهي محفوظة بحفظ القرآن، فبقاء القرآن والسنة بقاؤها، فلا فهم لهما إلا بها، ولا إبداع في فوائدهما إلا بها حتى قيل لولا القرآن ما كانت عربية.

ولهذا كانت اللغة العربية في شريعتنا لها مكانة، وفي علومنا ودروسنا لها حصانة، ولعزنا وشرفنا لها وقع وصيانة.

*** فرادتها في نظامها الصوتي**

"نظام اللغة الصوتي، نظام فريد يتكون من عدد متوسط من الأصوات (31 صوتا) وأن الأصوات العربية ظلت كما هي لم تتغير ولم تتبدل على مدار التاريخ؛ وهي موزعة توزيعًا متوازنًا على أطول مدرج صوتي عرفته لغة إنسانية، فتخرج تلك الأصوات العربية مكتملة واضحة بينة، أما أصوات اللغات الأخرى كاللغات التي تكثر فيها الغنة، فتخرج من مدرج صوتي محدود، فتتقارب مخارجها، فتأتي باهتة غامضة يصعب تميزها والنطق بها من قبل الذين يسعون لتعلمها". [29]

"فإذ كان ما وصفنا من ذلك كالذي وصفنا، فبين أن لا بيان أبين، ولا حكمة أبلغ، ولا منطق أعلى، ولا كلام أشرف –من بيان ومنطق تحدى به أمرؤ قوما في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة، وقيل الشعر والفصاحة، والسجع والكهانة، على كل خطيب منهم وبليغ وشاعر منهم وفصيح، وكل ذي سجع وكهانة –فسفه أحلامهم، وقصر بعقولهم وتبرأ من دينهم، ودعا جميعهم إلى اتباعه والقبول منه والتصديق به، والإقرار بأنه رسول إليهم من ربهم. وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته، وحجته على حقيقة نبوته–ما أتاهم به من البيان، والحكمة والفرقان، بلسان مثل ألسنتهم، ومنطق موافقة معانيه معاني منطقهم". [30]

---

[28] - المرجع السابق.

[29] - المدينة: صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، الأربعاء 2011/05/25 بقلم نايف كريري جازان.

[30] - جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)9/1

ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزة، ومن القدرة عليه نقصه، فأقر جميعهم بالعجز، وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص. إلا من تجاهل منهم وتعامى، واستكبر وتعاشى، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر. فأبدى من ضعف عقله ما كان مستترا، ومن عي لسانه ما كان مصونا، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق، والجاهل الأحمق، فقال: "والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، فالخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما"! ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة. [31]

فإذ كان تفاضل مراتب البيان، وتباين منازل درجات الكلام، بما وصفنا قبل –وكان الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه، أحكم الحكماء، وأحلم الحلماء، كان معلوما أن أبين البيان بيانه، وأفضل الكلام كلامه، وأن قدر فضل بيانه، جل ذكره، على بيان جميع خلقه، كفضله على جميع عباده. [32]

*** موافقتها لمعاني القرآن**

إن المتأمل في اللغة العربية لا يجد شكا في كونها موافقة تمام التوافق بين معانيها ومعاني القران الكريم المنزل على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم، وظاهرها لظاهر كلامه موافقا، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان، بما قد تقدم وصفه. [33]

فإذ كان ذلك كذلك، فبين –إذ كان موجودا في كلام العرب الإيجاز والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصرح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر، وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والاكتفاء ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهار ما حظه الحذف – أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك، في كل ذلك له نظيرا، وله مثلا وشبيها". [34]

*** خاتمة**

من خلال ما سبق يتبين لنا مدى عظمة هذا الوعاء الذي اختاره الله عز وجل وشرفه لحمل بلاغاته القرآنية، ورسالاته الخالدة، فهي لغة حية متفاعلة ربانية صالحة لترجمة معاني القران الكريم، والإعراب عن معانيه ومراميه، بأحسن بيان، وألطفه برهان، لما حباها الله به، من فرادة في نظامها الصوتي والصرفي.

مما يؤكد بلا شك أنها اللغة الخالدة والصالحة لتبليغ رسالات الله للعالم أجمع، ونفي شبه المغرضين الذين يحرفون الكلم عن مواضيعه ويجادلون بغير حق، ويعاندون ويشككون

---

[31] - المرجع السابق. 10/1

[32] - جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري 9/1

[33] - المرجع السابق 12/1

[34] - المرجع السابق 12/1

في مقدرة هذه اللغة على الوصول الى المخاطبين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم.

وهذا المقال جاء استجابة لهذا الإشكال ورغبة في تفنيد مزاعمهم الباطلة، وترهاتهم الحمقى، التي لا تستند لا الى دليل، ولا برهان، وما قدمناه من براهين لكاف لدحض كل تلك الشبهات والأقاويل. وواف لبيان عمق هذه اللغة الخالدة، وقدرتها على البيان والتبيان، الشيء الذي منحها الريادة والسؤدد والشرف بتنزيل كلام رب العزة جل جلاله بها.

وختاما. لا نقول ألا ما قاله البروفيسور السوداني – عبد المجيد الطيب –بمناسبة نيله لدرجة الدكتوراه في اللغة العربية، والتي أبانت عن واقع ومستقبل اللغة العربية المشرق الذي قد يمكنها من أن تكون اللغة العالمية الأولى في المستقبل. وقد وصفها في كلمة جامعة بالقول: "لن يجد العالم غير العربية لغة قياسية ومنطقية وحية".[35]

*** المراجع**

عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم المؤلف: أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال

تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي

تفسير الإمام الشافعي

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري

تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني

التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي)

دراسات في علم اللغة المؤلف: كمال بشر الناشر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: –عدد الصفحات: ٣٣٥

تاريخ نزول القرآن، المؤلف: محمد رأفت سعيد

المدينة: صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، الأربعاء 2011/05/25 بقلم نايف كريري جازان.

التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول] المؤلف: دروزة محمد عزت الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة الطبعة: ١٣٨٣ هـ، تاريخ النشر بالشاملة: ٨ ذو الحجة ١٤٣١

[35] - المدينة: صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، الأربعاء 2011/05/25 بقلم نايف كريري جازان.